الباب الرابع

بعد سقوط بغداد

كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة؟

انتكث فتل العباسيين كما علمت في بغداد بعد عهد المتوكل لتنافس الفرس والترك، وتحارب الشيعة والسنة، وذهاب جلال الخلافة من النفوس، فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء، حتى قوض عرشها هولاكو سنة 656 هـ. وتضعضع أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على ملكهم، وتقسيمه بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرنج ازدرادها قطعة قطعة، حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة 898 هـ. ودالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعنا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك، وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين 923 هـ. فأنت ترى أن العالم الإسلامي أتى عليه ستون وخمسمائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا ظل ممدود، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل. وضع هؤلاء العجم وهم وحشيون أميون أيديهم على تراث العرب، فخربوا الدور وهتكوا الخدور، وفجعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب، وتعطيل المدارس وتقويض المراصد، وتقتيل العلماء. وناهيك بما فعله التتار ببخاري وبغداد، والصليبيون بالشام، والفرنج بالأندلس! فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بدعاً من القول ولا حدثاً في التاريخ. ولكنها بقيت عل مرغمة الحوادث لساناً للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة. ولولا نعرة الترك وعصبية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة.

والفضل في بقائها عل فناء أهلها إنما كان للذكر الحكيم، وللأزهر الشريف، ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك؛ فقد كانوا لها ردءاً،

ولأبنائها حرزاً، ولعلمائها وزراً، ومن غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق؛ لأن الأيوبيين وإن كانوا أكرادا قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبغ فيهم الشاعر والعالم والمؤرخ، كالملك الأفضل [1] علي ابن صلاح الدين المتوفى سنة 601 هـ وبهرام شاه صاحب لعلبك المتوفى سنة 628، والملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء المتوفى سنة 732. وكذلك قل في المماليك فقد نبغ فيهم أحد السلاطين في الشعر وهو قنصوه الغوري المتوفى سنة 923، لأنهم اتخذوا مصر وطناً، والإسلام ديناً، والعربية لغة، وعضدوا العلماء وقربوا الأدباء، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين حتى نبغ ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة والعلوم في المجموعات والموسوعات، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص، وهذبوا التاريخ ووضعوا فلسفته، وأقاموا للشعر وزناً على قلة العارفين بفضله، والمستمعين إلى أهله، كابن منظور صاحب لسان العرب، والفيروزابادي صاحب القاموس، وابن خلدون منشئ المقدمة، والقلقشندى جامع صبح الأعشى. والشاب الظريف وصفي الدين الحلي، وابن الوردي، وابن معتوق، والصفدي، ولكن هؤلاء أفراد تقسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاض اللغة الثكلى وقد كبت ببنيها الجدود العواثر، فأمحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم

---

(1) كان الملك الأفضل ضعيف الرأي كثير الغفلة فغلبه عمه العادل أبو بكر وأخوه العزيز عثمان علي ملك الشام ومصر، فكتب إلى الخليفة الناصر العباسي كتابا يشكو إليه ذلك فيه وقد بدأه ببيتين من الشعر أجاد في نظمهما كل الإجادة وهما:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد أخذا بالسيف حق علي

فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقي ... من الأواخر ما لاقى من الأول

يريد بأبي بكر عمه، وبعثمان أخاه. فأجابه الخليفة الناصر بقوله:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً ... بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

غضبوا عليا حقه إذ لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ناصر

فاصبر فإن غدا عليه حسابهم ... وابشر فناصرك الإمام الناصر

والأندلس، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد رنقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا الذِّماء.

ولقد كان أسلوبهم في النثر والشعر كأسلوب من تقدمهم من متأخري العصر العباسي، ولكنهم في الغالي لم يحسنوا التقليد، ولم يصيبوا الغرض؛ فتبدلوا في اللفظ، وتوغلوا في الصنعة، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى إذا حال ذلك دون تورية أو سجعة أو جناس.

فلما أدال الله بني عثمان من المماليك أصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، واللغة الرسمية التركية لا العربية [1] ففشا في اللغة الدخيل، وزاحمتها العامية والتركية في الدواوين، وذهبت أساليبها من النظم والنثر، وتمكن الذل من النفوس فخمدت القرائح، ونضب معين العلم، واطمأنت الكتب في الخزائن فلم يزعجها إلا اشتغال الأرضة في صفحاتها، وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعموا، وفدحتهم أعباء الذل فرزحوا، وطال عليهم الأمد فغشاهم النعاس، وخيم عليهم الظلام، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة!.

---

(1) على أن الأتراك في عهدهم الأول كانوا يتعلمون اللغة العربية ويتكلمون بها ويضعون المؤلفات القيمة فيها كالغير وزابادى، والبركوى المتوفى سنة 981 هـ وأبي السعود. والقناري وملاخسرو، والجامي، والخيال، وخوجه زاده، وحاجي خليفة، وطاشكيري، وابن كمال باشا صاحب كتاب النبيه على غلط الجاهل والنبيه.

وكان ملوك العثمانيين أنفسهم يدرسون العربية وآدابها كما يدرسون التركية وآدابها: ومنهم من فرس الشعر العربي ورواه كالسلطان أحمد الأول، فقد رووا له قصيدة مطلعها:

ظَبْيٌ يَصُولُ ولا وصول إليه جَرَحَ الفُؤَادَ بِصارِمَيّ لَحْظَيْه

ومنها:

يا شعر في بصري ولا في خده إني أغار من النسيم عليه

ولم تضعف عناية علماء الترك باللغة العربية إلا في عهد السلطان محمود الثاني وابنه السلطان عبد المجيد الأول حين أحبوا اللغة التركية وقربوا مواردها ويسطوا قواعدها وسموها اللغة العثمانية (انظر مجلة المجمع العلمي العربي مجلد 6 جزء 7 س 21).

أعلام هذه المفازة

أغطشت سماء الأدب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح، ومشى الناس في دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق في سماء مصر، أو بارق في جو الشام. وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود اللغة، ورفعا سقوط الأدب، وجمعا شمل العلم، ولولاهما لانقطع ما بين الأدبين: القديم والحديث. وما كان أروح للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم مواطني وجيرتي! ولكن البحث محدود والقلم موجز. ومهما يكن من شيء فلن يفوتنا ذكر أسمائهم معقبة بأسماء معاصريهم في العراق والمغرب، اعترافاً لهذه النفوس الكبيرة بالإحسان والفضل.

فمن النابغين في الشعر والأدب التلعفري، ولد بالموصل سنة 592 واتصل بالملك الأشرف موسى، ثم هلك سنة 675 هـ فريسة للقمار. والشاب الظريف، ولد بمصر وتوفى بها غض الإهاب سنة 688 هـ والبوصيري صاحب البردة في مدح الرسول، ولد وتوفى بمصر سنة 695 هـ، وابن نباتة المصري المتوفى سنة 768 هـ وابن حجة الحموي زعيم الأدباء في عصره وصاحب خزانة الأدب، توفى سنة 827 هـ، والقلقشندي المصري جامع صبح الأعشى المتوفى سنة 821 هـ، ثم صفي الدين الحلي المتوفى سنة 750 هـ، وابن معتوق المتوفى سنة 1087 هـ. وشعرهم مثقل بقيود الصنعة، محصور في دائرة التقليد، تغب فيه مظاهر الضعف الخلقي كالجبن والملق والشكوى والإغراق والقحة. إلا أن في بعضه أثارة من الحسن وبقية من البيان. والنابغون في اللغة وعلومها ابن مالك صاحب الألفية المتوفى سنة 673 هـ، وجمال الدين ابن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة 711 هـ وجمال الدين ابن هشام صاحب المغنى في النحو المتوفى سنة 761 هـ والفيروزابادي صاحب القاموس المتوفى سنة 817 هـ. وهؤلاء قد بسطوا قواعد اللغة واستوعبوا مواردها في الكتب والمعجمات. ونوابغ التاريخ والجغرافية، ابن أبي أصيبعة صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء المتوفى سنة 668 هـ، وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان المتوفى سنة 681 هـ، وأبو الفداء المتوفى سنة 732

هـ، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة 748 هـ، والمقريزي صاحب كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخط والآثار، المتوفى سنة 845 هـ، ثم ابن الطقطقي صاحب الفخري المتوفى سنة 701 هـ، وطريقتهم في التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث، واستنباط العبر، والحكم بشيء من النقد، والخوض في بعض مسائل العلم والاجتماع. فكانوا بذلك خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى منهج التاريخ القويم.

ونبغ من العلماء أصحاب الأسفار العامة: النويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب المتوفى سنة 732 هـ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار المتوفى سنة 748 هـ، وجلال الدين السيوطي صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة 911 هـ، وكمال الدين الدميري صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة 808 هـ. وهم أصحاب الفضل جميعاً في ضم شتيت العلم والأدب في أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة. فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالعقم حين ألحت عليها أرزاء الدهر، وتخونتها أعراض الهرم، حفظاً لكتابه وصوناً لدينه، فكانت تنجب حيناً بعد حين علماً من أولئك الأعلام يجدد منها ما أندرس، ويرأب فيها ما انصدع، وينقذها من يد البلى والعفاء.

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

وها نحن أولاء نترجم بذوي الأثر البارز منهم واقفين الآن عند ذلك.

صفي الدين الحلي

(677 - 750 هـ)

نشأته وحياته

ولد صفي الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالحلة في العراق وبها نشأ وتأدب. ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى المهاجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمى الملوك من آل أرتق (663 – 713)؛ فحلوا عقدة الخوف عن قلبه، ونزل منهم في جناب مربع. فمدحهم بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً، يبدأ كل بيت بحرف من حروف الهجاء ويختم به؛ وسماها (درر البحور في مدائح لملك المنصور) وهي المعروفة بالأرتقيات.

وفي سنة 717 هـ ورد مصر فمثل بين يدي الملك الناصر ابن قلاوون ومدحه فملأ يده بجوائزه. وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفى بها.

شعره

لا خلاف في أن صفي الدين الشعراء في عصره. ولا تزال في شعره بلة من فصاحة اللفظ وبقية من رشاقة الأسلوب. افتتن في الصنعة ما شاء، وأجاد في القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال، وغالى في المجون والأحماض، ودخل في أحد عشر باباً من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه. واخترع في النظم، منها الموشح المضمن كقوله في تضمين بائية أبي نواس:

وحتى الهوى ما حلت يوما عن الهوى ... ولكن نجمي في المحبة قد هوى

ومن كنت أرجو وصله قتلى نوى ... وأضنني فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجب ... إن أصابن نصب

(حامل الهوى تعب ... يستحقه الطرب)

نموذج من شعره

قال في الحماسة:

سل الرماح العوالي عن معالينا ... وسائل البيض هل خاب الرجا فينا؟
وسائل العرب والأتراك ما فعلت ... في أرض قبر عبيد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا ... عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد ... دنا الأعادي كما كانوا يدينونا
يضمر ما بطناها مسومة ... إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفتية إن نقل أصغوا مسامعهم ... لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة ... يوماً وإن حكموا كانوا موازينا
تدرعوا العقل جلباباً فإن حميت ... نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة ... وإن دعوا قالت الأيام آمينا
إنا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً ... أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا، سود وقائعنا، ... خضر مرابعنا، حمر مواضينا
لا يظهر العجز منا دون نيل منى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

ابن منظور

(630 - 714 هـ)

نشأته وحياته

ولد جمال الدين محمد بن المكرم بالقاهرة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة 630 هـ في بيت من بيوت العلم، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن أبي الطفيل ومرتضى ابن حاتم وابن المقبر حتى نال من العلوم والآداب قسطاً موفوراً جعله أهلاً للعمل في ديوان الإنشاء. والعمل في هذا الديوان يومئذ يقتضي مشاركة في علوم وفنون كثيرة فصبها صاحب صبح الأعشى. ثم ولى قضاء طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن الدرس والتأليف حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه.

وكان ابن منظور صاحب جد وخلق وإرادة. وقد كان يتشبع في غير رفض كما يظهر من أسلوبه في لسان العرب كلما عرض ما يتصل بذلك. وقد توفى بالقاهرة.

مؤلفاته

لم يكن ابن منظور من أولى الاقتدار على الابتكار، وإنما كان كجلة العلماء في عصره أميل إلى الجمع أو الاختصار. وقد قال الصفدي صلاح الدين: " ما أعرف من كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره جمال الدين ابن المكرم ". فمن مؤلفاته:

لسان العرب

وهو ذلك المعجم الجامع الذي حوي بين دفتيه تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير. وقد رتبه المؤلف على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهل الاستفادة منه. وتحرى صحة النقل في مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواة وتأييدها بالشواهد الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر.

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدي أن النسخة الأولى التي كتبها بخطة الجميل من لسان العرب كانت في ملك المقر الأشرف الكمالي ناظر ديوان الإنشاء بمصر، وهي مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً. ولكنها طبعت في مصر في عشرين مجلداً سنة 1300 هـ. ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل ما يقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما، والاصطباح ومدحه، والهلال وظهوره، وانبلاج الفجر، ورقة النسيم وقت السحر، وتغريد الطيور على الشجر، والشمس والكواكب وآراء المنجمين وأهل الفلك الخ... وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار كمختار الأغاني في الأخبار والتهاني. وهو يطبع اليوم في الدار المصرية للتأليف والترجمة بتحقيق بعض الأدباء، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومختصر مفردات الحيوان للجاحظ، ومختصر اليتيمة للثعالبي، ولطائف الذخيرة لابن بسام.

وقد كان يتعاطى الشعر ويجيده، ومن ذلك قوله:

ضع كتابي إذا أتاك على الأرض وقلبه في يديك لاما

فعلى ختمه وفي جانبيه قبل قد وضعتهن تؤاما

كان قصدي بها مباشرة الأرض وكفيك بالتشامي إذا ما

وقوله:

يا الله إن جرت بوادي الأراك وقبلت أغصانه الخضر فاك

فابعث إلى المملوك من بعضه فأنني والله مالي (سواك)

أبو الفداء

(672 - 732 هـ)

نشأته وحياته

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الأيوبي صاحب حماة. ولد بدمشق على مهد السراوة والفضل وربى في حجر الرخاء والنعمة، واستكمل حظه من العلوم وتفوق في التاريخ والهيئة. وكان بطلا مقداماً. خدم الملك الناصر ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتر فوعده بحماة ووفى بوعده، فأقامه عليها سلطاناً مطلق الإرادة حر التصرف، ولقبه بالملك المؤيد وأقدمه إلى مصر وأركبه بشعار السلطنة، فمشى الأمراء والكبراء في خدمته. وكان أبو الفداء يجمل إليه في كل عام أفخر الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر. وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء، ظهيراً للعلماء، لوعا بالتأليف، حتى استخار له الله ما عنده.

مؤلفاته

لأبي الفداء كتابات في التاريخ وتقويم البلدان هما مرجع العرب والفرنج في تحقيق هذين العلمين. فالأول كتاب (المختصر في أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمة العربية يبلغ بها إلى سنة 729، وقد لخصه من عشرين كتاباً ونيفاً، وحذا فيه حذو ابن الأثير في ترتيبه على السنين. وتحرى في نقل الحوادث الصدق والنقد، والآخر كتاب (تقويم البلدان)، جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك، وضبط الأسماء، وحقق الأطوال والأعراض، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وفارس. وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية.

ابن خلدون

(732 - 808 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد المشهور بابن خلدون؛ ينتهي نسبه إلى وائل من أقيال كندة. هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته في إشبيلية. ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث ولد هذا العالم الكبير سنة 732 هـ. ودرج في مهد السراوة والعلم، وتأدب على أبيه ثم على غيره؛ فأتقن القرآن وضرب في كل العلوم بسهم، وبرع في الفقه والعربية وتبحر في التاريخ فاستجلى غوامضه واستقصى مباحثه، حتى أصبح فيه قريع دهره ونسيج وحده. وطمحت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فاتصل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب، وتقلد الكتابة والحجابة والقضاء، إلا أنه كان قليل المكث في كل منصب تقلده لعزة نفسه وصراحة قوله وكثرة حساده.

فلما كانت سنة 764 هـ وفد على الأندلس فاهتز له الغني بالله صاحب غرناطة وبعث بخاصته لاستقباله وإكرام وفادته، وألزمته مجلسه وانفرد به دون وزيره. فحقد عليه هذا حقداً عرفه ابن خلدون، فغادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه. ثم أخذ يجول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة 784 هـ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر، واتصل بالسلطان برقوق فعرف حقه وولاه على تمنع منه قضاء المالكية، فأقام المعدلة، وحكم المنصفة، وضرب على أيدي القضاة. فثار به ثائرهم واختلفوا عليه الأكاذيب ورفعوا شكواهم إلى السلطان فلم يقم لكلامهم وزناً. ولكن ابن خلدون سئم هذه الحياة المرة، وضجر من تلك المكائد المستمرة. ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس، فنالت منه هذه المحنة، فاستعفي من القضاء وأدى فريضة الحج واعتزل في ضيعة له بالفيوم أقطعه السلطان إياها، وانصرف إلى التدريس والتأليف. ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة الحظوظ، فمازال يولى ويعزل، وينصر ويخذل، حتى وافاه أجله بمصر سنة 808 هـ.

أخلاقه

قال فيه لسان الدين ابن الخطيب: كان رجلاً فاضلاً، حسن الخلق، جم الفضائل، ظاهر الحياء، وقور المجلس، خاص الزى، عزوفاً عن الضيم، صعب المقادة، خاطباً للحظ، متقدما في فنون عقلية ونقلية، سديد البحث، كثير الحفظ، بارع الخط، مغرى بالتجلة، حسن العشرة، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤه وآثاره.

نثره وشعره

ظهر ابن خلدون في عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصناعة روح الكتابة، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حده. فرغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى. وقد صرح بذلك في كلامه عن كتابته لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول: " وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها، وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة. ثم أخذت نفسي بالشعر فانثالت عليَّ منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور ". وحكمه على نفسه من الحق والصراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تعقيب.

كتابه في التاريخ

نظر ابن خلدون في التاريخ فحرر مباحثه، وعلل حوادثه، ووضع كتابه المشهور (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات. يمتز بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة، والصراحة في القول، والسداد في الرأي، والإنصاف في الحكم.

على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة، لاشتماله على أبحاث مبتدعة منوعة في الاجتماع

والاقتصاد وفلسفة التاريخ، واستنباط الأسباب والعلل مما طالعه أو شاهده في حياته العظيمة ورحلاته العديدة. وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول: الأول في النشوء والارتقاء، والثاني في الاجتماع، والثالث في السياسة العملية، والرابع في الهندسة الحربية، والخامس في الاقتصاد السياسي، والسادس في تاريخ آداب اللغة العربية، فهي خزانة علم وأدب فضلا عن أسلوبها الرشيق المتسق.

والراجح أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طبيعة العمران في الخليقة. وقد فصلها في مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة، مما دل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه في الاستنباط والتعليل. على أن العلماء أخذوا عليه إخلاله بالقواعد التي وضعها لكتابة التاريخ، ولم يسلم من المآخذ التي أخذها على سابقيه. وسبحان من تفرد بالكمال!.

السيدة عائشة الباعونية

(المتوفاة سنة 922 هـ)

نشأتها وحياتها

هي السيدة الفاضلة الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني، ولدت بالصالحية بدمشق في بيت عريق في العلم والورع، فقد كان أبوها وعمها وولدها وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلت من حياضهم، وجنت من رياضهم. ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين إسماعيل الحوراني، ومحيي الدين الأرموي ووردت بعد ذلك مصر فتلمذت للعلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري. ثم عكفت على التدريس والتأليف فانتفع بعلمها وفضلها خلق كثير. ثم انتقلت إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين، في مدح الأمين، وهو شرح لقصيدتها التي نظمتها في علم البديع على منوال ابن حجة، وكتاب فيض الفضل، وهو ديوان شعر في المدائح النبوية، والمورد الأهنى في المولد الأسنى، وهو مولد النبي صلى الله عليه وسلم اشتمل على رقائق النثر والنظم.

منزلتها في الشعر والكتابة

يثير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تبذ الرجال في العلم والأدب، ولا يعيها أن تكلف بالسجع، وتتكلف البديع، وتغري باللفظ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنيع بيئته. والشعر الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه. وقد علمنا كيف تشبث الشعراء في هذه العصور بالصناعة اللفظية، وانصرفوا إلى المعاني الدينية، فلا بدع إذا تخلقت هي بأخلاق عصرها، ونهجت سبيله في نثرها وشعرها.

نموذج من كلامها

قالت في مقدمة شرح البديعة:

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع، شاهدة بسلامة الطباع، منقحة بحسن البيان، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان، سافرة عن وجوه البديع، سامية بمدح الحبيب الشفيع، مطلقة من قيود تسمية الأنواع، مشرقة الطوالع في أفق الإبداع، موسومة بين القصائد النبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة أهل الإشارات، بالفتح المبين، في مدح الأمين.

ومطلع هذه القصيدة:

في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

أقول والدمع جار جارح مقلي والجار جار بعدل فيه منهم

ومنها في الجناس:

يا سعد إن أبصرت عيناك كاظمة وجئت سلعاُ فسل عن أهلها القدوم

فثم أقمار تم طالعين على سويلع حيهم وأنزل بحيهم

ومنها في الاستخدام:

واستوطنوا السر منى فهو موضعهم ولا أبوح به يوماً لغيرهم

ومنها في التفريق:

قالوا هو الغيث، قلت الغيث آونة يهمى وغيث نداه لا يزال همي

ومنها في حسن الختام:

مدحت مجدك والإخلاص ملتزمي فيه وحسن امتداحي فيك مختتمي

وقالت في جسر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق:

بنى سلطاننا برقوق جسراً بأمر والأنام له مطيعه

مجاز في الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة

ومن نظمها في وصف دمشق:

نـزه الطـرف فـي دمشـق ففيهـا كـل مـا تشـتهي ومـا تختـار
هـي فـي الأرض جنـة فتأمـل كيـف تجـري مـن تحتهـا الأنهـار
كـم سـماها في ربوعها كـل قصـر أشـرقت مـن وجوهـه الأقمـار
وتناغيـك بينهـا صـادحات خرسـت عنـد نطفهـا الأوتـار
كلهـا روضـة ومـاء زلال وقصـور مشـيدة وديـار